



المجتمع لا يتمكن من أن يمارس بذور الأقوياء، بذور الوحوش فيه لا يتمكنون على الأغلب من أن يمارسوا أدواراً خطيراً من الاستغلال الاجتماعي، لأن مستوى الانتاج محدود والقدرة محدودة وكل إنسان لا يكسب عادة يعرق جبينه إلا قوت يومه، فلا توجد امكانية الاستغلال بشكله الاجتماعي الواسع وأن كان توجد ألوان أخرى من الاستغلال الفردي، ولكن لاحظوا من الجانب الآخر مجتمعاً متطوراً استطاع الإنسان فيه أن يصنع الآلة البخارية والآلة الكهربائية، استطاع فيه أن يخضع الطبيعة لإرادته، في مثل هذا المجتمع سوف تكون الآلة البخارية والآلة الكهربائية المعقدة المتطورة الصنع تكون أداة امكانية على ساحة علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان، تشكل بحسب مصطلح الفلاسفة ما بالقوة للاستغلال ويبقى ان يخرج ما بالقوة إلى ما بالفعل وذلك على عهدة الإنسان ودوره التاريخي على الساحة الاجتماعية، فالإنسان هو الذي يصنع الاستغلال، هو الذي يفرز النظام الرأسمالي المستغل حينما يجد الآلة البخارية والكهربائية، ولكن الآلة البخارية والكهربائية هي التي تعطيه امكانية هذا الاستغلال، هي التي تهيئ له فرصة تفتح شهيته، توقظ مشاعره، تحرك جدله الداخلي وتناقضه الداخلي من أجل أن يبرز صيغة تتناسب مع ما يوجد على الساحة من قوى الانتاج ووسائل التوريد. وهذا هو الفرق بيننا وبين المادية التاريخية، المادية التاريخية اعتقدت بأن الآلة هي التي تصنع الاستغلال، هي التي تصنع النظام المناسب لها، ولكننا نحن لا نرى ان دور الآلة هو دور الصانع، وانما دور الآلة هو دور الامكانية، دور توفير الفرصة والقابلية، وأما الصانع الذي يتصرف ايجاباً وسلباً، أمانة وخيانة، صموداً وانهاراً، انما هو الإنسان وفقاً لمحتواه الداخلي، لمثله الأعلى، لمدى التحامه مع هذا المثل الأعلى، هذه هي العلاقة الأولى. وأما العلاقة القرآنية الثانية التي تمثل وتجسد تأثير علاقات الإنسان مع الطبيعة، فمؤدي هذه العلاقة القرآنية هو أنَّهُ كلما جسدت علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان العدالة وكلما استطاعت ان تستوعب قيم هذه العدالة وان تبتعد عن أي لون من ألوان الظلم والاستغلال من الإنسان لأخيه الإنسان، كلما وقع ذلك، ازدهرت علاقات الإنسان مع الطبيعة وتفتحت الطبيعة عن كنوزها. وأعطت المخبوء من ثرواتها ونزلت البركات من السماء، وتفجرت الأرض بالنعمة والرخاء. هذه العلاقة القرآنية هي العلاقة التي شرحها القرآن الكريم في نصوص عديدة، قال سبحانه وتعالى: (وَأَلِّسُوا اسْتَغْنَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا) (الجن/ 16). (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ...) (المائدة/ 66). (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَهْلُوا الْقُرْآنَ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (الأعراف/ 96)، هذه العلاقة مؤداها ان علاقات

الإنسان مع الطبيعة تتناسب عكسياً مع ازدهار العدالة في علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان، فكلما ازدهرت العدالة في علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان أكثر فأكثر ازدهرت علاقات الإنسان مع الطبيعة، وكلما انحسرت العدالة عن الخط الأوّل انحسر الازدهار عن الخط الثاني، أي ان مجتمع العدل هو الذي يصنع الازدهار في علاقات الإنسان مع الطبيعة، ومجتمع الظلم هو الذي يؤدي إلى انحسار تلك العلاقات، علاقات الإنسان مع الطبيعة، وهذه العلاقة ليست ذات محتوى غيبي فقط، نعم نحن نؤمن أيضاً بمحتواها الغيبي ولكن إضافة إلى محتواها الغيبي الرباني هي تشكل سنة من سنن التاريخ بحسب مفهوم القرآن الكريم وذلك لأن مجتمع الظلم، مجتمع الفراعنة على مرّ التاريخ مجتمع ممزق، مشتت، الفرعونية على مرّ التاريخ حينما تحكم في علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان تستهدف تمزيق طاقات المجتمع، وتشتت فئاته، وبعثرة امكانياته، ومن الواضح أنّهُ تشتت وبعثرة وتفتت وتجزئة من هذا القبيل لا يمكن لأفراد المجتمع ان يحشدوا قواهم الحقيقية والسيطرة على الطبيعة. وهذا هو الفرق بين المثل العليا المنخفضة الفرعونية وبين المثل الأعلى الحق مثل التوحيد سبحانه وتعالى، فإنّ المثل الأعلى يوحد الجامعة البشرية ويلغي كل الفوارق والحدود باعتبار شمولية هذا المثل الأعلى، باعتبار شموليته فهو يستوعب كل الحدود وكل الفوارق، يهضم كل الاختلافات، يصهر البشرية كلها في وحدة متكافئة، لا يوجد ما يميز بعضها عن بعض، لا من دم ولا من جنس ولا من قومية ولا من حدود جغرافية أو طبقية. المثل الأعلى بشموليته يوحّد البشرية ولكن المثل العليا المنخفضة تجزئ البشرية وتشتت البشرية، انظروا إلى المثل الأعلى كيف يقول: (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) (الأنبياء / 92)، (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) (المؤمنون / 52)، هذا هو منطق شمولية المثل الأعلى التي لا تعترف بحد وبحاجز في داخل هذه الأسرة البشرية، انظروا، استمعوا إلى المثل المنخفض، إلى مجتمع الظلم وآلهة مجتمع الظلم يقولون، أو كيف يتحدث عنهم القرآن الكريم (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا) (القصص / 4)، فرعون المثل الأعلى المنخفض، الفرعونية على مرّ التاريخ التي تبني العلاقات بين الإنسان وأخيه الإنسان على أساس الظلم والاستغلال، الفرعونية تجزئ المجتمع، تبعثر امكانيات المجتمع وطاقات المجتمع، ومن هنا تهدر ما في الإنسان من قدرة على الإبداع والنمو الطبيعي على ساحة علاقات الإنسان مع الطبيعة، وعملية التجزئة الفرعونية للمجتمع تقسم المجتمع إلى فصائل وجماعات؛ الجماعة الأولى ظالمون مستضعفون، هذه الجماعة الأولى في التقسيم الفرعوني هم الظالمون المستضعفون، في نفس الوقت الظالمون الثانويون أو بحسب تعبير أئمتنا - عليهم الصلاة والسلام - "اعوان الظلمة" هؤلاء الظالمون المستضعفون يشكلون حماية لفرعون وللفرعونية وسنداً في المجتمع لبقاء الفرعونية

واستمرار وجودها واطارها. قال ﷻ سبحانه وتعالى: (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوِّقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لَا أَنْزَلْتُمُ لَكُنُزًا مِّنْ سَمَآئِنَا) (سبأ/ 31). هنا القرآن يتحدث عن الظالمين يقول: (إِذِ الظَّالِمُونَ مَوِّقُوفُونَ) لكن الظالمين صنفهم إلى قسمين: إلى من استضعف منهم ومن استكبر منهم. إذن فالظالمون فيهم مستكبرون وهم الذين يمثلون الفرعونية في المجتمع وفيهم مستضعفون. فالطائفة الأولى إذن في التجزئة الفرعونية لمجتمع الظلم هم الظالمون المستضعفون، هؤلاء الذين يحشرون يوم القيام في زمرة الظالمين ثم يقولون للمستكبرين من الظالمين لولا انتم لكننا مؤمنين، هذه الطائفة الأولى التي تشكل الحماية والسند للفرعونية. الطائفة الثانية في عملية التمزقة الفرعونية لمجتمع الظلم ظالمون يشكلون حاشية ومتملقين، أولئك الذين قد لا يمارسون ظلماً بأيديهم بالفعل ولكنهم دائماً وابدأً على مستوى نزوات فرعون وشهوات فرعون ورغبات فرعون يسبقونه بالقول من أجل ان يصحوا مسلكه ومسيرته. قال ﷻ سبحانه وتعالى: (وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُنَا مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْنَا وَيَرْجِعَنَا إِلَىٰ قَوْمِ نِسَاءِ هُمُومٌ وَإِن نَّزَّلْنَاهُمْ نِسَاءً هُمُومٌ وَإِن نَّزَّلْنَاهُمْ نِسَاءً هُمُومٌ وَإِن نَّزَّلْنَاهُمْ نِسَاءً هُمُومٌ) (الأعراف/ 127)، شكلوا دور الاثارة لفرعون، هؤلاء كانوا يعرفون انهم بهذا الكلام يضربون على الوتر الحساس في قلب فرعون، وان فرعون كان بحاجة إلى كلام من هذا القبيل، فتسابقوا إلى هذا الكلام لكي يجعلوا فرعون يعبر عما في نفسه ويتخذ الموقف المنسجم مع مشاعره وعواطفه وفرعونيته. الطائفة الثالثة في عملية التجزئة الفرعونية لمجتمع الظلم أولئك الذين عبر عنهم الإمام عليّ (ع) "بالهجم الرعاع" جماعة هم مجرد آلات مستسلمة للظلم، لا تحس بالظلم، لا تدرك إنها مظلومة ولا تدرك ان في المجتمع ظلماً، هي آلات تتحرك آلياً، تحركاً يشبه التحرك الميكانيكي للآلة، تحرك التبعية والطاعة دون تدبير، دون وعي، سلب فرعون منها تدبرها، عقلها، وعيها، ربط يدها به لا عقلها به، ولهذا فهي تحرك يدها تحريكاً آلياً وتستسلم للأوامر، للأوامر الفرعونية دون أن تناقشها حتى دون ان تتدبرها، حتى بينها وبين نفسها لا بينها وبين الآخرين، هذه الفئة طبعاً تفقد كل قدرة على الابداع البشري في مجال التعامل مع الطبيعة، تفقد كل قابليات النمو لأنها تحولت إلى آلات، إذا وجد أن هناك ابداعاً في هذه الفئة إنما هو ابداع من يحرك هذه الآلات، ابداع تلك الفرعونية التي تحرك هذه الآلات، وأما هذه الفئة فلم تعد أناساً وبشراً يفكرون ويتدبرون لكي يستطيعوا أن يحققوا لوناً من الابداع على هذه الساحة. قال ﷻ سبحانه وتعالى: (وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَاعْنَا مَا سَادَ تَنَازًا وَكُفِّرْنَا بِنَا وَأَنزَلْنَا السَّبِيلَا) (الأحزاب/ 67)، لا يوجد في كلام هؤلاء ما يشعر

بأنهم كانوا يحسون بالظلم أو كانوا يحسون بأنهم مظلومون وانما هو مجرد طاعة، مجرد تبعية، هؤلاء هم القسم الثالث في تقسيم مولانا أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة والسلام حينما قال: "الناس ثلاثة: عالم رباني ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعا ينعمون مع كل ناعق"، وهذا القسم الثالث يشكل مشكلة بالنسبة إلى أي مجتمع صالح، وبقدر ما يمكن للمجتمع الصالح أن يستأصل هذا القسم الثالث بتحويله إلى القسم الثاني، بتحويله إلى متعلم على سبيل النجاة على حد تعبير الإمام، إلى تابع باحسان على حد تعبير القرآن، إلى مقلد بوعي وتبصر على حد تعبير الفقه، بقدر ما يمكن تحويل هذا القسم الثالث إلى القسم الثاني يمكن للمجتمع الصالح أن يستمر وأن يمتد، ولهذا كان من ضرورات المجتمع الصالح في نظر الإمام (ع) هو شجب هذا القسم الثالث، هؤلاء همج، رعا ينعمون مع كل ناعق، ليس لهم عقل مستقل، واردة مستقلة. كان الإمام (ع) يرى أن هذا القسم الثالث يجب تصفيته من المجتمع الصالح، ذلك لا بالقضاء عليه فردياً، بل بتحويله إلى القسم الثاني ضمن إحدى الصيغ الثلاث التي ذكرناها، لكي يستطيع المجتمع الصالح أن يواصل ابداعه، ولكي يستطيع كل أفراد المجتمع الصالح، أن يشكلوا مشاركة حقيقية في مسيرة الابداع، وخلافاً لذلك الفرعونية، الفرعونية تحاول أن توسع من هذا القسم الثالث، هؤلاء همج الرعا الذين ينعمون مع كل ناعق تحاول الفرعونية ان توسع منهم وكلما توسعت هذه الفئة أكثر فأكثر قدمت المجتمع نحو الدمار خطوة بعد خطوة لأن هذه الفئة لا تستطيع بوجه من الوجوه أن تدافع عن المجتمع إذا حلت كارثة في الداخل أو طرأت كارثة من الخارج، فكلما توسعت هذه الفئة، هذا القسم الثالث، هؤلاء الذين ينعمون مع كل ناعق، كلما توسعوا في المجتمع ازداد خطر فناء المجتمع وبهذا تموت المجتمعات موتاً طبيعياً. مفهوم الموت لدى القرآن للمجتمعات وللأقوام وللأمم الموت الطبيعي للمجتمع لا الموت المخروم. المجتمع له موتان: موت طبيعي وموت مخروم. الموت الطبيعي للمجتمع يكون عن طريق توسع هذه الفئة الثالثة وازديادها نوعياً وعددياً في المجتمع إلى أن تحل الكارثة فينهار المجتمع. هذه الطائفة الثالثة في عملية التجزئة الفرعونية. أما الطائفة الرابعة: هم أولئك الذين يستنكرون الظلم في أنفسهم، أولئك الذين لم يفقدوا لبهم أمام فرعون والفرعونية فهم يستنكرون الظلم لكنهم يهادنونه يسكتون عنه فيعيشون حالة التوتر والقلق في أنفسهم، وهذه الحالة، حالة التوتر والقلق أبعد ما تكون عن حالة تسمح للإنسان بالابداع والتجديد والنمو على ساحة علاقات الإنسان مع الطبيعة. هؤلاء يسميهم القرآن الكريم (طَالِمِي أَرْفُسِهِمْ°)، قال الله سبحانه وتعالى: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُْ الْمَلَائِكَةُ طَالِمِي أَرْفُسِهِمْ° قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ° قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا... (النساء/

(97)، هؤلاء لم يظلموا الآخرين، ليسوا من الظالمين المستضعفين كالطائفة الأولى، وليسوا من الحاشية المتملقين، وليسوا أيضاً من الهمج الرعاع الذين فقدوا لبهم بل بالعكس هم يشعرون بأنهم مستضعفون. (قَالَوَا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ) هؤلاء لم يفقدوا لبهم، يدركون واقعهم ولكنهم كانوا عملياً مهادين ولهذا عبر عنهم القرآن بأنهم ظلّموا أنفسهم، هذه الطائفة هل يترقب منها أن تساعد بابداع حقيقي في مجال علاقات الإنسان مع الطبيعة؟ طبعاً كلا. الطائفة الخامسة في عملية التجزئة الفرعونية للمجتمع هي: الطائفة التي تنهرب من مسرح الحياة، تبتعد عن المسرح وتتهرب منه وتترهب. وهذه الرهبانية موجودة في كل مجتمعات الظلم على مرّ التاريخ وهي تتخذ صيغتين: الأولى صيغة جادة، رهبانية جادة تريد ان تفر بنفسها لكي لا تتلوث بأحوال المجتمع، هذه الرهبانية الجادة التي عبر عنها القرآن الكريم بقوله: (وَرَهَبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا) (الحديد/ 27)، هذه الرهبانية يشجبها الإسلام لأنّها موقف سلبي تجاه مسؤولية خلافة الإنسان على الأرض. وهناك صيغة مفتعلة للرهبانية، يترهّب ويلبس مسوح الرهبان ولكنه ليس راهباً في اعماق نفسه، وانما يريد بذلك ان يخدر الناس ويشغلهم عن فرعون وظلم فرعون ويسطو عليهم نفسياً وروحياً. وهذا هو الذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله: (إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَعْيَارِ وَالرُّهَبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْإِطْلَاقِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ... (التوبة/ 34). الجماعة السادسة والأخيرة في عملية التجزئة الفرعونية للمجتمع هم: المستضعفون. الفرعونية حينما جزأت المجتمع إلى طوائف، فرعون حينما اتخذ من قومه شيعاً إستضعف طائفة معينة منهم خصها بالاستضعاف والاذلال وهدر الكرامة لأنها كانت هي الطائفة التي يتوسم أن تشكل اطاراً للتحرك ضده ولهذا استضعفها بالذات. (وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِّن مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُم بِسُوءِ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ) (البقرة/ 49). هذه هي الطائفة السادسة وقد علمنا القرآن الكريم ضمن سنة من سنن التاريخ أيضاً ان موقع أي طائفة في التركيب الفرعوني لمجتمع الظلم يتناسب عكساً مع موقعه بعد انحسار الظلم، وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى: (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) (القصص/ 5). تلك الطائفة السادسة التي كانت هي منحدر التركيب يريد ان سبحانه وتعالى ان يجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين وهذه علاقة أخرى وسنة تاريخية أخرى يأتي الحديث عنها إن شاء الله تعالى. إذن فإلى هنا استخلصنا هذه الحقيقة وهي: ان المجتمع يتناسب مدى الظلم فيه تناسباً عكسياً مع ازدهار علاقات الإنسان مع الطبيعة، ويتناسب مدى العدل فيه تناسباً طردياً مع ازدهار علاقات الإنسان مع الطبيعة. مجتمع الفرعونية المجزأ المشتت مهدور

القابليات والطاقات والامكانيات ومن هنا تحبس السماء فطرها، وتمنع الأرض بركاتها، واما مجتمع العدل فهو على العكس تماماً هو مجتمع تتوحد فيه كل القابليات وتتساوى فيه كل الفرص والامكانيات. يتبع... المصدر: كتاب المدرسة القرآنية